

الرسول هو المثل الأعلى للحياة المتوازنة المتكاملة

- نعمة خلود القرآن .
- نعمة السيرة النبوية .
- المثل الأعلى للحياة المتوازنة المتكاملة .
- كلمة بليغة لابن القيم .

obeikandi.com

الرسول هو المثل الأعلى للحياة المتوازنة المتكاملة

● نعمتان عظيمتان :

من فضل الله على المسلمين ، وتماث نعمته عليهم : نعمتان عظيمتان ، تميزت بهما هذه الأمة الخاتمة : ﴿ يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١) .

✽ نعمة خلود القرآن :

النعمة الأولى : هي خلود مصادر هذا الدين ، وبقاؤها محفوظة بحفظ الله لها ، فإن هذه الأمة هي الأمة الأخيرة ، التي حملها الله آخر الرسالات ، فليس بعد نبيها نبي ، ولا بعد قرآنها كتاب ، ولا بعد دينها شريعة . ولهذا لم يكل حفظ كتابها إلى أهلها كالكتب السابقة ، بل تكفل بحفظه بنفسه ، وقال في ذلك : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٢) ، والقرآن هو المصدر الأول لهذه الملة ، والمنبع الأول للعقيدة والشريعة والسلوك .

ولقد صدق الواقع التاريخي هذا الوعد الإلهي أعظم تصديق ، فقد مضت أربعة عشر قرناً أو تزيد على نزول هذا القرآن ، وهو هو ، كما أنزله الله ، وكما تلاه رسوله على أصحابه ، وكما كُتِبَ في عهد عثمان رضى الله عنه . تتناقله الأجيال ، محفوظة في الصدور ، متلو بالالسنه ، مكتوباً في المصاحف .

ولا يوجد كتاب يحفظه - عن ظهر قلب - عشرات الألوف ، ومئات الألوف من أبنائه ، إلا القرآن العظيم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وحفظ القرآن - كما نبّه الإمام الشاطبى رحمه الله - يتضمن حفظ السنّة

(٢) الحجر : ٩

(١) البقرة : ١٠٥

كذلك ، لأن السُّنَّةَ هي البيان النظرى والعملى للقرآن ، لأن حفظ المبيّن يتضمن حفظ البيان معه .

※

※ نعمة السيرة النبوية :

والنعمة الثانية : هي السيرة النبوية العاطرة ، وهي سيرة متميزة لها خصائصها التى بيّنها المحققون من العلماء (١) ، فهي سيرة علمية مدونة ، وسيرة تاريخية ثابتة ، وسيرة مكتملة الحلقات ، من الولادة إلى الوفاة ، وهي سيرة شاملة جامعة ، تُجسّد حياة النّبى ﷺ فى وقائع وأحداث ، ناطقة معبرة ، هذه الحياة المتكاملة المتوازنة ، التى نجد فيها الإسلام حياً ، والقرآن مفسراً ، والقيم الإسلامية تسعى بين الناس على قدمين ، هذه الحياة هي التطبيق العملى للقرآن الكريم ، كما قالت عائشة وقد سُئِلَتْ عن خُلُقِ رسول الله ﷺ ، فقالت : « خُلُقُهُ كَانَ الْقُرْآنَ » .

هذه الحياة هي التى يجد كل مسلم فيها أُسُوتَهُ المثلى ، ومثله الأعلى ، فقد أدبَه ربه فأحسن تأديبه ، وأنزل عليه الكتاب والحكمة ، وعَلَّمَهُ ما لم يكن يعلم ، وكان فضل الله عليه عظيماً ، وامتَنَّ به على المؤمنين ، إذ بعثه رسولاً منهم ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٢) .

يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٣) .

(١) من أبرز ذلك : محاضرات العلامة سليمان الندوى ، التى ترجمها من الأوردية إلى العربية العلامة محب الدين الخطيب ، ونشرتها « المكتبة السلفية » تحت عنوان « الرسالة المحمدية » ، وهو كتاب ينبغى أن يُقرأ .

(٣) الأحزاب : ٢١

(٢) آل عمران : ١٦٤

ولا يوجد عند اليهود ولا النصارى - ولا عند غيرهم من أصحاب الأديان الأخرى - مثل هذه السيرة الحية النابضة ، الشاملة لكل مراحل الحياة ، وكل جوانب الحياة ، كما تُصوّر ذلك كتب الشرائع النبوية ، وكتب « الهدى النبوى » : فى المأكل والمشرب ، فى الملبس والزينة ، فى النوم واليقظة ، فى الحضر والسفر ، فى الضحك والبكاء ، فى الجد واللّهو ، فى العبادة والمعاملة ، فى الدين والدنيا ، فى السلم والحرب ، فى التعامل مع الأقارب والأباعد ، مع الأنصار والخصوم ، حتى النواحي التى يسميها الناس « خاصة » فى معاشرّة الزوجات ، كلها مروية محفوظة فى هذه السيرة الكاملة .

* *

● المثل الأعلى للحياة المتوازنة :

والحق أن المثل التطبيقى الأعلى للتكامل وللتوازن بين المثل والواقع ، بين القلب والعقل ، بين الإيمان والعلم ، بين الروح والمادة ، بين الفردية والجماعية ، بين حق الرب وحظ النفس . وإعطاء كل منها حقه بلا طغيان ولا إخسار - هو رسول الله ﷺ ، الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، وأنزل عليه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان .

✽ الرسول العابد الزاهد :

فتراه فى مجال العبادة لربه ، العابد الأول ، الذى كانت قُرّة عينه فى الصلاة ، وكان يقوم اللّيل حتى تتفطر قدماه ، ويبكى حتى تبلل دموعه لحيته ، وتعجب زوجته عائشة من شدة تعبده وبكائه ، وقد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، فيقول لها : « أفلا أكون عبداً شكوراً » (١) .

وكان يصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع غالباً ، وأحياناً يديم الصيام حتى يظن من حوله أنه سيصوم الدهر كله ، وأحياناً يواصل اللّيل بالنهار فى الصيام ، فيمضى يومين أو أكثر لا يتناول طعاماً ، بعد الغروب ، وهو ما نهى عنه أصحابه ولهذا قالوا له : أنتهانا عن الوصال وتواصل ؟ فقال : « وأيكم

(١) متفق عليه .

مثلى ؟ إني أبيت يطعمنى ربى ويسقبنى » (١) ، فكانت من خصوصياته صلى الله عليه وسلم .

وكان دائم الذكر لله تعالى فى كل أحواله : وعلى كل أحيانه ، بقلبه ولسانه . وأذكاره وأدعيته ومناجاته لربه ، يتجلى فيها أغنى قيم الصدق والإخلاص لله تعالى ، والعبودية المتجردة لربه ، كما أنها تمثل أروع المعانى ، وأوضح الطموحات التى ينبغى أن ينشدها الإنسان الربانى لنفسه ، ولن يحب . . مصوغه فى أحلى القوالب البلاغية ، وأعذب الأساليب البيانية ، التى تهز الكينونة البشرية من أعماقها . . وهى وحدها مدرسة روحية فذة .

وقد حفلت بها كتب الحديث والسيرة ، وألفت فيها كتب خاصة ، قديماً (٢) وحديثاً ، لعل أحدثها كتاب شيخنا الشيخ محمد الغزالى « فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء » .

وكان صلى الله عليه وسلم ، برغم تعبد لربه ، واشتغاله بذكره ، وقيامه الدائم بالدعوة إلى دينه ، والجهاد فى سبيله ، دائم الخشية له سبحانه ، كثير الاستغفار ، كثير التوبة ، وهذا من كمال عبوديته ، وعظم مقام الألوهية عنده ، وفى هذا كان يقول : « إنه ليغان على قلبى ، وإني لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » (٣) ، « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فإنى أتوب إلى الله عز وجل فى اليوم مائة مرة » (٤) .

وكان صلى الله عليه وسلم أزهّد الناس فى الدنيا ، وأرضاهم باليسير منها ،

(١) متفق عليه .

(٢) مثل « عمل اليوم والليلة » للنسائى ولابن السنى ، و« الأذكار » للنووى ، وشرحه لابن علان ، و« الكلم الطيب » لابن تيمية ، و« الحصن الحصين » لابن الجزرى ، وشرحه « تحفة الذاكرين » للشوكانى .

(٣) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى عن الأغر المزنى « صحيح الجامع الصغير » (٢٤١٥) .

(٤) رواه أحمد ومسلم عن الأغر أيضاً . المرجع نفسه (٧٨٨١) .

مع ما فتح الله له من الفتوح ، وأفاء عليه من الغنائم ، وبعد أن أصبح سيد الجزيرة . . . ولكنه لقي ربه ولم يشبع من خبز الشعير ثلاثة أيام متوالية ، وكان الشهر يمر تلو الشهر ولا يوقد في بيته نار ، إنما عيشه على الأسودين : التمر والماء . . . وكان ينام على الحصير حتى يؤثر في جنبه . . . ورآه عمر ابن الخطاب يوماً كذلك ، فبكى توجعاً له وإشفافاً عليه ، واقترح عليه بعضهم أن يهيئوا له فراشاً ألين من هذا ، فقال لهم : « ما لى وللدنيا ؟ ما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ، ثم راح وتركها » ! (١) .



✽ الرسول الإنسان :

ولكنه صلى الله عليه وسلم مع هذه الروحانية العالية ، في ذكره وشكره وحسن عبادته لربه ، وفي زهادته في دنيا الناس ، وعيشه فيها بشعور الغريب ، وعابر السبيل ! . . لم يغفل الجوانب الأخرى من الحياة بما تفرضه من أعباء ، وما تثقله من مطالب ، لم ينس أنه إنسان وزوج وأب وجد ، وقريب ، وجار ، وصديق ، ورئيس ، وقائد . . . وأن كل علاقة من هذه لها حقوقها .

ولهذا رأيناه إنساناً يرضى كما يرضى البشر ، ويغضب كما يغضب البشر ، ويفرح كما يفرحون ، ويحزن كما يحزنون .

ولكنه إذا رضى لم يُدخله رضاه في باطل ، وإذا غضب لم يُخرجه غضبه عن الحق ، وإذا فرح لم يفرح بغير الحق ، وإذا حزن لم يُخرجه حزنه عن الصبر والرضا ، ويشارك أصحابه في مسراتهم ، ولا يخرجهم ذلك عن الوقار .

ويضحكه بعض أصحابه فيضحك ، ويمزح أحياناً ، ولكن لا يقول إلا حقاً ، ويأذن للحبشة أن يرقصوا بحرابهم في مسجده ، ويعرف طبيعة الأنصار ،

(١) رواه أحمد والحاكم عن ابن عباس ، ورواه بنحوه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم والضياء عن ابن مسعود - صحيح الجامع الصغير (٥٦٦٩) ، (٥٦٦٨) .

فيقول في عرس لأحدهم : « أما كان معهم لهو ؟ فإن الأنصار يعجبهم اللّهُو » (١) ، ويسمح لجاريتين أن تغنيا في بيته في يوم عيد « حتى يعلم اليهود أن في ديننا فسحة ، وأنى بُعثُ بحنيّفة سمحة » (٢) .

❖

❖ الزوج المثالي :

رأيناه زوجاً يحسن عشرة أزواجه ، ويعدل بينهن فيما يقدر عليه ، ويطيب أنفسهن ، ويصالح بينهن ، ويُقدّر الظروف الخاصة لكل منهن ، ويستمع أحياناً إلى قصصهن وإن طالّت ، كما في حديث أم زرع المشهور ، وبرغم همومه ومشاغله التي تنوء بها الجبال ، يداعب ويمازح ، كما رأيناه يسابق عائشة ، فتسبقه مرة ، ويسبقها أخرى ، فيقول لها : « هذه بتلك » (٣) .

❖

❖ الأب والجد :

رأيناه أباً يحب أبناءه وبناته ، ويحرص على كل خير لهم في الدنيا والآخرة ، مات ابنه إبراهيم ، فحزن عليه ، ودمعت عيناه ، ولم يجد في ذلك ما ينافي الصبر والرضا ، بل قال : « تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، والله إنّ بفراقك يا إبراهيم لحزونون » (٤) .

وحين أراد عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه أن يتزوج على فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، ابنة أبي جهل لعنه الله ، غضب ، وقال : « إن فاطمة بضعة منى ، وأنا أتخوف أن تُفتن في دينها ، وإنى لست أُحرم حلالاً ، ولا أحل حراماً ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله تحت رجل واحد أبداً » (٥) .

(١) رواه البخارى عن عائشة . المصدر السابق (٧٩١٨) .

(٢) رواه أحمد عن عائشة (١٨٦/٦ ، ١٨٧) .

(٣) رواه أحمد وأبو داود عن عائشة - صحيح الجامع الصغير (٧٠٠٧) .

(٤) رواه الشيخان وأحمد وأبو داود عن أنس - المرجع نفسه (٢٩٣١) .

(٥) رواه أحمد والشيخان وأبو داود وابن ماجه - المرجع نفسه (٢١١٥) .

رأيناه جداً يلاعب سبطيه : الحسن والحسين ، ويوطئ لهما ظهره ليركبا ، بأبى هو وأمى ، ويركب أحدهما على ظهره الشريف مرة وهو يصلى فيطيل الصلاة ، حتى ظن الصحابة الظنون ، فلما فرغ وسلّم ، سأله عن سر إطالة سجوده ، فقال : « إن ابني ارتحلني (أى اتخذني راحلة وركوبة !) ، فكرهت أن أعجله » (١) . أى أنه لم يشأ أن يقطع على الصبي لذته في امتطاء ظهر جده .

ويقول عن الحسن والحسين : « إن ابني هذين ريحانتاي من الدنيا » (٢) .

*

* راعى حقوق الرحم والجوار والصدقة :

رأيناه يرعى حق الرحم والقراءة ، ولو كان أهلها مشركين ، ويقول لقريش : « إن لكم رحماً أبلاها ببلالها » (٣) ، وحين تمكن منهم يوم الفتح بعد طول ما جرعه الصاب والعلقم ، قال لهم فى تسامح القوى : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » (٤) ، بل كان يكرم أقارب أبيه من بنى النجار ، وأقارب أمه من بنى زهرة ، مثل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، الذى عُرِفَ بأنه خال رسول الله ﷺ ، ولم يكن أخاً لأمه ، ولكن من بنى عمومته .

رأيناه يرعى حق الجار ، وإن ظلم وجار ، وإن كان يهودياً من أهل الكتاب ، ويقول فى ذلك : « ما زال جبريل يوصينى بالجار ، حتى ظننت أنه سيورثه » (٥) .

رأيناه صديقاً ، يرعى حقوق الصداقة والصحبة ، ولهذا غضب حين أغضب بعضهم أبا بكر ، فقال : « اتركوا لى صاحبى . . . » ، وقال :

(١) قال الحافظ العراقى فى تخريج الإحياء : رواه النسائى من رواية عبد الله بن شداد عن أبيه ، والحاكم وصححه على شرط الشيخين .

(٢) رواه أحمد والبخارى والترمذى عن ابن عمر - صحيح الجامع الصغير (١٥٢٩) .

(٣) رواه البخارى فى كتاب « الأدب » ، ومسلم فى كتاب « الإيمان » عن عمرو بن العاص .

(٤) مشهور ذكره ابن هشام فى سيرته عن ابن إسحاق (٢٧٤/٢) ولكن إسناده معضل .

(٥) متفق عليه عن ابن عمر وعائشة - صحيح الجامع الصغير (٥٦٢٨) .

« لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً دون ربي ، لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكنه أخى وصاحبي » (١) .

وكان أوفى الناس لأصحابه ، ولكل من تربطه به أو بأهل بيته صلة ، حتى كان يكرم بعض العجائز ، وييش لهن ، ويهدي إليهن ، فسئل في ذلك ، فقال : « إن هذه كانت صديقة خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان ! » (٢) .

❖

❖ رئيس الدولة :

رأيناه رئيساً لدولة جديدة ، تحيط بها العداوات من كل جانب : وثنية ويهودية ونصرانية ، فلم يشغله هم الجهاد والإعداد لمقاومة أعدائها ، عن العناية بالشئون الداخلية لأهلها ، من بناء المسجد للصلاة ، إلى إقامة السوق للتجارة . . . ومن إقامة العلاقات السياسية بين الطوائف التي تسكن المدينة وضواحيها ، وهي دار الإسلام في ذلك الوقت ، على أساس واضح مكتوب في وثيقة دستورية معروفة ، إلى العناية بأمر هرة حبستها امرأة حتى ماتت جوعاً ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض ومن لقاء الوفود من أنحاء الجزيرة ، وإرسال الرسل إلى ملوك الأرض المعروفين ، إلى الاهتمام بأمر أمة تأخذ بيده ، وتمضي في طرقات المدينة ، فلا يدع يده من يدها (توضعاً وحياءً منه) حتى تقضى حاجتها (٣) .

❖

❖ الرسول القائد :

رأيناه قائداً يخطط للمعارك قبل وقوعها ، ويبعث الطلائع والعيون لاستطلاع أخبار العدو ، ويقوم بعمل أول إحصاء للقوة الضاربة عنده ، حتى يكون تخطيطه على أساس علمي مكين ، ويحث على التدريب واستمراره ، فهو دعامة القوة العسكرية : « ألا إن القوة الرمي » (٤) ، « من تعلم الرمي ثم نسيه ،

(١) رواه أحمد والبخاري عن ابن الزبير ، والبخاري عن ابن عباس - المرجع نفسه (٥٢٩١) .

(٢) أصل الحديث في الصحيحين عن عائشة ، وهذا اللفظ رواه الحاكم والبيهقي ، وفي إسناده ضعف ، ذكره الحافظ في « الفتح » (٤٣٦/١٠) .

(٣) معنى حديث رواه أحمد والبخاري عن أنس . (٤) رواه مسلم عن عقبة بن عامر .

فليس منا « - أو : « فقد عصي » (١) . . وهو مع قوة توكله على الله تعالى -
يلبس للحرب لبوسها ، حتى إنه فى إحدى المعارك ظاهر بين درعين ، ويُعَلِّمُ
أصحابه أن الحرب خدعة ، وأن للعوامل النفسية أثرها فى كسب المعارك ، فلا
بد من العمل على تخذيل الأعداء ، وتفريق كلمتهم .
وهو يعتمد - بعد الله تعالى - على حُسْنِ التخطيط ، والتنظيم ، والإعداد ،
و« التكتيك » حتى إنه ليفاجئ أعداءه بخطط لم يعهدوها ، فيربكهم ،
ويعرف قدرات أصحابه ، فيضع كُلاً فى موضعه المناسب .
ولا غرو أنه القائد الذى رأينا كبار القُوَّاد - مثل أبى عبيدة وسعد وخالد
وعمر وغيرهم - تلاميذ بين يديه .

✱

✱ العامل المتوكل :

رأيناه يراعى سُنَنَ الله ويأخذ بالأسباب ، ويعد العدة ، ويتوقى الخطر ،
ويأمر بأخذ الحذر ، ويعمل بالإحصاء ، ويخطط للمستقبل ، ويرتب ويفكر
قدر ما يستطيع البشر ، ولكنه لا يغفل أبداً عن التوكل على الله تعالى ،
ولا ينسى أن الأمر كله بيده ، وخصوصاً ساعة الشدائد ، وحصار الأزمات ،
فهنا تراه أقوى ما يكون ثقة بالله ، واعتصاماً به ، وفراراً إليه .
فقد رأيناه خطَّطَ ورَتَّبَ ونظَّم كل ما يتعلق بهجرته إلى المدينة ، فلما وقف
المشركون الذين يطاردونه على باب الغار الذى يختبئ فيه ، وقال له صاحبه ورفيقه
أبو بكر مشفقاً عليه : « لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأنا » ! قال فى ثقة و يقين :
« يا أبا بكر ؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ؟ (٢) ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (٣) .

✱

✱ القائم بعمارة الأرض المستمتع بطيئاتها :

ومن ناحية أخرى نجده - صلى الله عليه وسلم - مع إقباله بكلية على
الآخرة ، وإعراضه عن الدنيا وزينتها ، وتصويره الدنيا بالنسبة للآخرة ، كما

(١) رواه مسلم عن عقبة بن عامر أيضاً

(٢) متفق عليه عن أبى بكر . (٣) التوبة : ٤٠

يجعل الإنسان إصبعه فى اليم : « فلينظر بماذا يرجع » ؟ (١) - لم يعيش فى الدنيا عيشة الرهبان الراضين لها ، المعادين لكل ما فيها ، بل كان يعلم أن الدنيا مزرعة للآخرة ، وأن الإنسان مستخلف فيها ، وأن له فيها مستقراً ومتاعاً إلى حين ، وأن عمارة الأرض من مقاصد التكليف ، وأن هذه العمارة - المتمثلة فى الزراعة ، والغرس ، والصناعة ، والاحتراف ، والتجارة وغيرها - تعتبر عبادة لله ، إذا صحّت فيها النية ، وأدبت على الوجه المطلوب ، بلا خيانة ولا غش ولا إهمال ، ولهذا أبقى أصحابه - عليه الصلاة والسلام - فى حرفهم ، ولم يخرج واحداً منهم عن حرفته ، ليتفرغ للعبادة أو لغيرها ، إنما دعاهم أن يتقربوا إلى الله بإحسان أعمالهم : « إن الله كتب الإحسان على كل شئ » (٢) ، « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » (٣) .

كما أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يرفض طيبات الدنيا إذا تيسرت له ، بل إذا وجدها تناولها وحمد الله تعالى . وإذا لم يجدها لم يتكلفها ، ولم يحزن على فقدها .

كان يعجبه من الطعام اللحم ، ويعجبه منه لحم الذراع ، ويعجبه من الشراب اللبن ، ويقول : « مَنْ سقاه الله لبناً فليقل : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ » (٤) ، وكان يستعذب له الماء ، ويوضع فيه بعض التمرات للتخفيف من ملوحته .

وكان يلبس من الثياب ما تيسر ، لا يلتزم زياً أو هيئة معينة ، ويختص بعض الحُلل للجمعة وللعيد ، وكذلك للقاء الوفود ، وكان يرجل شعره ، ويتطيب ، ويحب الطيب ، وينظر فى المرأة ، ويقول : « اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة . (٢) رواه مسلم عن شداد بن أوس .

(٣) رواه البيهقى فى شُعَب الإيمان عن عائشة ، وحسنه فى صحيح الجامع الصغير . (١٨٨٠) .

(٤) رواه الترمذى فى الدعوات عن ابن عباس (٣٤٥٥) وقال : حديث حسن .

خَلَقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي » (١) ، ويوصى أصحابه بالنظافة والتجمل ، حتى يكون أحدهم حسن المظهر ، طيب الرائحة ، ولا يجب أن يدخل عليه أحدهم ثائر الرأس كأنه شيطان ، ويقول : « مَنْ كَانَ لَهُ شَعْرٌ فَلْيَكْرِمِهِ » (٢) ، ويوصى بنظافة أشياء معينة. في الجسم مثل الأسنان ، ولهذا حضَّ على السواك : « السواك مطهرة للفسم ، مرضاة للرب » (٣) ، كما أكد العناية بالجسم كله : « حق لله على كل مسلم في كل سبعة أيام يوم يغسل فيه رأسه وجسده » (٤) ، وضرب لأصحابه المثل في ذلك كله ، وكان نِعَمَ الأسوة لهم ، وعَلَّمَهُم أن الدين لا يضيق بالتجمل ، و« إن الله جميل يحب الجمال » (٥) .

رَأَيْنَاهُ يَتَدَاوَى ، وَيَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِالتَّدَاوَى ، وَيُعَلِّمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً ، عِلْمُهُ مَنَ عِلْمِهِ ، وَجَهْلُهُ مَنَ جَهْلِهِ ، وَيَصِفُ بَعْضَ الْأَدْوِيَةِ لِبَعْضِ الْأَمْرَاضِ ، حَسْبَمَا تَعَلَّمَهُ مِنَ الْبَيْئَةِ غَالِبًا ، وَلَكِنَّهُ بِجَوَارِ هَذَا اسْتِخْدَامِ الْأَدْوِيَةِ الرُّوحِيَّةِ مِنَ الرِّقَى وَالِدَعَاءِ ، فَرَّقَى نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ ، وَعَلَّمَهُمْ كَيْفَ تَكُونُ الرِّقِيَّةُ ، مُحَذِّرًا مِنَ الرِّقَى الشَّرِكِيَّةِ .

وَالْوَاقِعُ أَنَّ سِيرَتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا أَشْرْنَا إِلَى ذَلِكَ - سِيرَةٌ جَامِعَةٌ شَامِلَةٌ ، مُتَوَازِنَةٌ ، يَجِدُ فِيهَا كُلُّ طَالِبٍ أُسْوَةً مَكَانًا لِلاتِّبَاءِ بِهَا ، وَالْاِقْتِدَاءُ بِهَدَايَاهَا .
فَالْفَقِيرُ يَجِدُ فِيهَا مَجَالًا لِلْاِقْتِدَاءِ ، وَالْاهْتِدَاءِ ، يَوْمَ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَشُدُّ

(١) رواه أحمد عن ابن مسعود - صحيح الجامع الصغير (١٣٠٧) .

(٢) رواه أبو داود عن أبي هريرة - صحيح الجامع الصغير (٦٤٩٣) .

(٣) رواه أحمد عن أبي بكر وعائشة ، والنسائي وابن حبان والحاكم والبيهقي عن عائشة ، والبيهقي عن أبي أمامة ، والطبراني في « الأوسط » عن ابن عباس - المرجع نفسه (٣٦٩٥) .

(٤) متفق عليه عن أبي هريرة - المرجع نفسه (٣١٥٤) .

(٥) رواه مسلم عن ابن مسعود .

الحجر على بطنه من الجوع . . . والغنى يجد فيها قدوته يوم وسع الله عليه ،
ورضع بين يديه الأموال ، منها ما هو للدولة ، وما هو خاص له .

والحاكم والمحكوم ، والمحارب والمسلم ، والعزب والمتزوج ، وذو الزوجة
الواحدة ، وذو الزوجات المتعددات ، والأب والجد ، والشاب والشيخ ،
والسليم والسقيم ، والمقيم والمسافر ، والمعافي والمبتلى . . . وغير هؤلاء
وهؤلاء . . . كلهم يجدون في حياته الخصلة ، وفي سيرته الحافلة ، وفي
سنته الهادية ، متسعاً لهم ، ليقصدوا منها ، ويهتدوا بنورها . . . في حالات
الرخاء واليسر ، وفي حالات الشدة والعسر ، في حالات الانتصار ، وفي
حال الانكسار .

وعيب كثير من الفرق والطوائف من أهل الكلام والتصوف والفقه : أنهم
يأخذون بجانب من سيرته أو سنته صلى الله عليه وسلم ، ويغفلون جوانب
أخرى ، أو يضخمون ناحية على حساب نواح أخرى ، ولو تأملوا وأنصفوا ،
وجسعوا الأمور بعضها إلى بعض ، لوجدوا في هديه عليه الصلاة والسلام
الشمول والتوازن ، والاعتدال والتكامل ، الذي يسع كثيراً مما يُظن أنه
متعارض ، وما هو بمتعارض ، وإنما أراد الله لرسوله أن يكون الأسوة العليا
في كل أمر من الأمور .



● كلمة بليغة لابن القيم :

ويسرنى أن أسجل هنا ما ذكره الإمام ابن القيم في كتابه « عدة الصابرين
وذخيرة الشاكرين » حول هذا المعنى الكبير ، فأفاض فيه على طريقته ،
وضرب الأمثلة ، وذكر الأدلة ، وأشبع القول بمناسبة احتجاج طائفة بسيرته
وسنته عليه الصلاة والسلام على فضل الفقير الصابر ، واحتجاج معارضهم
بهما أيضاً على فضل الغنى الشاكر .

يقول ابن القيم :

« وما ينبغي أن يُعلم أن كل خصلة من خصال الفضل قد أحلَّ الله رسوله صلى الله عليه وسلم في أعلاها ، وخصَّه بذروه سنامها ، فإذا احتجَّت بحاله فرقة من فرق الأمة التي تعرف تلك الخصال وتقاسمتها على فضلها على غيرها ، أمكن للفرقة الأخرى أن تحتج به على فضلها أيضاً .

فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف ، احتج به العلماء على مثل ما احتج به أولئك .

وإذا احتج به الزُّهَّاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم ، احتج به الداخلون في الدنيا والولاية ، وسياسية الرعية ، لإقامة دين الله ، وتنفيذ أمره .

وإذا احتج به الفقير الصابر ، احتج به الغنى الشاكر .

وإذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها ، احتج به العارفون على فضل المعرفة .

وإذا احتج به أرباب التواضع والحلم ، احتج به أرباب العز والقهر للمبطلين والغلبة عليهم والبطش بهم .

وإذا احتج به أرباب الوقار والهيبة والرزانة ، احتج به أرباب الخُلُق الحسن والمزاج المباح الذي لا يخرج عن الحق ، وحُسن العِشرة للأهل والأصحاب .

وإذا احتج به أصحاب الصدع بالحق والقول به في المشهد والمغيب ، احتج به أصحاب المداراة والحياء والكرم أن يبادروا الرجل بما يكرهه في وجهه .

وإذا احتج به المتورعون على الورع المحمود ، احتج به اليسرون المسهلون الذين لا يخرجون عن سعة شريعته ويسرها وسهولتها .

وإذا احتج به مَنْ صرف عنايته إلى إصلاح دينه وقلبه ، احتج به مَنْ راعى

إصلاح بدنه ومعيشته ودنياه ، فإنه - صلى الله عليه وسلم - بُعث لإصلاح الدنيا والدين .

وإذا احتج به مَنْ لم يعلق قلبه بالأسباب ولا ركن إليها ، احتج به مَنْ فام بالأسباب ووضعها مواضعها وأعطاها حتها .

وإذا احتج به مَنْ جاع وصبر على الجوع ، احتج به مَنْ شبع وشكر ربه على الشبع .

وإذا احتج به مَنْ أخذ بالعفو والصفح والاحتمال ، احتج به مَنْ انتقم فى مواضع الانتقام .

وإذا احتج به مَنْ أعطى الله ووالى الله ، احتج به مَنْ منع الله وعادى الله .
وإذا احتج به مَنْ لم يدخر شيئاً لغد ، احتج به مَنْ يدخر لأهله قوت سنة

وإذا احتج به مَنْ يأكل الخشن من القوت والأدم كخبز الشعير والخل ، احتج به مَنْ يأكل اللذيذ الطيب كالشوى والحلوى والفاكهة والبطيخ ونحوه .

وإذا احتج به مَنْ سرد الصوم ، احتج به مَنْ سرد الفطر ، فكان يصوم حتى يُقال لا يفطر ، ويفطر حتى يُقال لا يصوم .

وإذا احتج به مَنْ رغب عن الطيبات والمشتهيات ، احتج به مَنْ أحب أطيب ما فى الدنيا ، وهو النساء والطيب .

وإذا احتج به مَنْ ألان جانبه وخفض جناحه لنسائه ، احتج به مَنْ أدبهن وآلمهن وطلق وهجر وخيرهن .

وإذا احتج به مَنْ ترك مباشرة أسباب المعيشة بنفسه ، احتج به مَنْ باشرها بنفسه فأجر واستأجر ، وباع واشترى ، واستسلف وأدان ورهن .

وإذا احتج به مَنْ يجتنب النساء بالكلية فى الحيض والصيام ، احتج به مَنْ يباشر امرأته وهى حائض بغير الوطء ، ومَنْ يُقبل امرأته وهو صائم .

وإذا احتج به مَنْ رحم أهل المعاصى بالقدر ، احتج به مَنْ أقام عليهم حدود الله فقطع السارق ورجم الزانى وجلد الشارب .

وإذا احتج به من أرباب الحكم بالظاهر ، احتج به أرباب السياسة العادلة المبنية على القرائن الظاهرة ، فإنه حبس فى تهمة وعاقب فى تهمة « .

إلى أن قال : « والمقصود بهذا الفصل : أنه ليس الفقراء والصابرون ، بأحق به - صلى الله عليه وسلم - من الأغنياء الشاكرين ، وأحق الناس به أعلمهم بسُنَّته ، وأتبعهم لها » (١) .

* * *

(١) من كتاب « عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين » لابن القيم ، مطبعة دار البيان بالقاهرة ص ٢٦٦ - ٢٦٨